الباحثون والسياسة

للأستاذ عباس محمود العقاد

المعروف عن رجال السياسة فى أمم الغرب أنهم أوسع اطلاعاً وأكمل ثقافة من رصفائهم فى الأمم الشرقية ، فمنهم الأدباء والناقدون . ومنهم المشتغلون بالفن أو بالعلم أو بالرياضة ، وقل منهم من ليست له مشاركة فى موضوع من موضوعات الذوق أو التفكير

لكن العجيب فيهم مع ذلك أنهم يعدون فى بلادهم من أقل الناس اطلاعاً على الدراسات النافعة فى شؤون السياسة العصرية ، أى الشؤون التى هم بها مشتغلون وعليها عاكفون ، كأنما يستنكف أحدهم أن يتعلم شيئاً فى مسألة من المسائل هو أحرى أن يجلس فيها مجلس الأساتذة المعلمين !

ومن هنا يعتورهم السهو والتقصير ، وتتعرض أحكامهم على المسائل العالمية لما يشبه الغفلة والإهمال

* * *

مثل من الأمثلة الكثيرة على ذلك هذه المحالفة الشيوعية النازية التى وقعت عند الأكثرين موقع المفاجأة والغرابة وفى طليعتهم أقطاب الوزارة والسفارة

فى الوقت الذى كان فيه بعض السفراء والوزراء يعانون صدمة المفاجأة من جراء هذه المحالفة الغريبة كان قراء الكتب السياسية يتلقونها كما يتلقون نبأ جائزاً فى التقدير بل مرجحاً أعظم الترجيح فى الحسبان

فى أوائل هذه السنة طبع كتاب الناقد السياسى والخبير الاقتصادى الدكتور بيتر دركر Peter Drucker الموسوم بنهاية الرجل الاقتصادى أو الرجل الذى يفترضه الشيوعيون والنازيون The End of Economic man فإذا بالمؤلف يقول عن المحالفة بين الروسيا والأمم الديمقراطية : « إنها قد أحدثت من الأضرار ما لم تحدثه قط غلطة سياسية فى السنين العشرين الأخيرة . فلن تقع الآن حرب بين ألمانيا وروسيا ما لم تعترض فى الطريق قارعة لا تخطر على البال . . . ومتى امتنعت الحرب فلا بد من محالفة تربط هاتين الدولتين فى وجه العالم الغربى بأسره ، ولا ينبغى أن ننظر إلى الحرب بينهما إلا على اعتبار أنها فكرة متمناة أو أمنية ترد علينا مورد التفكير . . . أما الواقع فهو أن الدولتين خليقتان أن تتقاربا وتتحالفا لأنهما متشابهتان فى لباب العقيدة وأحوال الاجتماع . ومن الحق أن تترقب هذه المحالفة ولو ناقضتها فى الظاهر جميع الاعتبارات والتقديرات . . . »

وفى قريب من الوقت الذى طبع فيه ذلك الكتاب كان كتاب آخر باسم « بولونيا مفتاح أوربا » يطبع لمؤلفه الدكتور رايموند لسلى بويل Raymound Leslie Buell الحجة الثقة بين علماء الأمريكيين فى هذه الشؤون ، وكان مؤلفه يراجع آراء هتلر التى بسطها فى كتابه « جهادى » عن المحالفة بين الروس والألمان فيرد عليها قائلاً :

« ومع هذا يحتمل أن تصبح الروسيا أقوى من أن تمزق وأضعف من أن ترفض اقتراحاً من النازيين بالاتفاق الشامل بين الفريقين . فهى فى عزلتها عن فرنسا وبريطانيا العظمى ، وفى حذرها من تهديد اليابان لتخومها الشرقية ، قد تؤثر محالفة ألمانيا على محاربتها ، وقد تؤدى هذه المحالفة إلى بطلان الدولية الثالثة وتقديم الموارد الروسية إلى الألمان واتخاذ السياسة المعادية للبهود؛ ويلوح أن إبرام هذا الاتفاق عسير قبل موت ستالين ، ولكن احتمالاً من هذين الاحتمالين وهما الحرب أو المحالفة الشاملة أمر لا ينبغى أن يعزب عن البال ... ولا يصعب علينا أن نتوقع اتفاقاً على تقسيم بولونيا تقسيما جديداً بعد المحالفة »

* * *

وحوالى هذا الوقت بعينه كانت صحيفة إنجليزية تصدر فى فانكوفر اسمها شمس فانكوفر Vancouver Sun وهى بلدة فى كندا تنشر بحثاً ضافياً فى هذا الموضوع فتقول فيه بعد عرض المسألة من جميع جوانبها ما خلاصته : « إن ستالين وهتلر قد يطرحان عنهما خصومتهما الفاشية فى الوقت الحاضر ويتفقان على تكرار تقسيم بولونيا من جديد . فالحكومة والأحوال فى كلتا الأمتين الروسية والألمانية ليس بينهما كبير خلاف ، وإن سخط هتلر وأصحابه من بيان هذه الحقيقة : كلتاهما حكومة طغيان عسكرى لا أثر فى ظلالها للحرية ، وقد صدقت الفكاهة التى تشيع

اليوم فى البيئات الألمانية وفحواها أن صاحباً يسأل صاحبه فى معزل عن الناس : ما الفرق بين روسيا السوفيتية وألمانيا النازية ؟ فيجيبه : الجو فى روسيا أبرد ! ... »

* * *

كان الباحثون السياسيون يفيضون فى أمثال هذه البحوث بين الترجيح تارة والتوكيد تارة أخرى والسفراء والوزراء يلحون فى وجوب عقد المحالفة بين الروسيا من جهة وبريطانيا العظمى وفرنسا من الجهة الأخرى ، وكان منهم رجل حصيف مثل لويد جورج يكتب وينادى بأن هذه المحالفة ضرورة لا محيص عنها وباب لا باب غيره للنجاة من أرهاب الهتلرية والنازية ، وكانت الإشاعات تتوالى بالتقدم فى طريق الاتفاق والدخول فى التفصيلات التى لا ضير منها على المبادئ والأصول ، وتشاء مضحكات القدر أن تقرأ أنباء هذه البشريات وأنباء الغدر الرومى فى بريد واحد وصل بعد استفحال الخطب وجلاء الشكوك !

* * *

ويسألنى القارئ : وما اقتراحك فى هذه المشكلة ؟ أتراك توصى بإسناد الوزارة والسفارة إلى الباحثين والدارسين وانتزاعها من أيدى الوزراء والسفراء ؟

وأبادر فأقول معاذ الله ! ... إن الباحث باحث والوزير وزير ، فإذا أصبح الباحث وزيراً بطل بحثه ونقص من أحد طرفيه ولم يستوف العملين فى آن

وإنما أقول بوجوب الانتفاع بهذه البحوث والدراسات فى تذكير الوزراء والسفراء أو فى بسط وجوه النظر فى كل مسألة من مسائل السياسة والحكم عند ما يعرضها عليهم العارضون

فيشتمل كل مكتب من المكاتب المتصلة بالسياسة القومية أو السياسة العالمية على قسم للقراءة والتلخيص والتبويب ، ولا تنظر مسألة من المسائل إلا ومعها سجل الحقائق والمعلومات والآراء التى اهتدى إليها فى تلك المسألة ذوو الخبرة والاختصاص

* * *

ولبيان الفرق بين قرار يتخذه عالم منقطع للدرس والمراجعة وقرار يتخذه وزير خاضع للقيود العملية والوقائع الراهنة والمنازعات الحزبية نسأل :

هبوا وزراء فرنسا وبريطانيا العظمى اطلعوا جميعاً على كتب الباحثين وفصول الخبراء الثقات فى ترجيح المحالفة النازية الشيوعية والتيئيس من المحالفة الأخرى وآمنوا أصدق الإيمان بما قرأوه فماذا عساهم كانوا صانعين ؟

كانوا يحجمون عن مفاوضة الروسيا ويستضيعون الوقت فيما ليس وراءه طائل

ونعود فنسأل : أتراهم يحسنون بذلك أم يسيئون ؟ ؟

واعتقادنا نحن أنهم يسيئون غاية الإساءة ، لأن أنصار الروسيا بين الفرنسيين والإنجليز وأبناء الأمم أجمع يظلون بعد ذلك فى ضلالهم القديم ، ويزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أن ساسة فرنسا وانجلترا هم الذين عزلوا الروسيا وقطعوا ما بينهم وبينها فدفعوها كارهة إلى أحضان النازيين أعداء الديمقراطية ، وأنهم إذن مسؤولون عن هذا الفشل وعما يضيع بسببه من الأرواح والأموال

ومتى شاعت هذه العقيدة بين الطبقات التى يؤخذ منها الجنود والعمال فالخطر عظيم ، وتزييف العقيدة بالحجج العلمية والدروس النظرية عسير ، وباب المكابرة واللجاجة مفتوح لمن شاء على مصراعيه

أما اليوم فقد أخطأ الساسة فى مفاوضة الشيوعيين وأصاب المقدار . فلا مكابرة ولا لجاجة ولا خفاء بحقيقة النيات بعد أن بلغ من وضوح الحقيقة أن تلمسها كل يد وتبصرها كل عين

إن الدراسة حسنة واتباع الواقع حسن ، وأحسن منهما واقع تهديه دراسة الدارسين .

عباس محمود العقاد